﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: 40 - 49]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قرنُ ذكرِ نعيمِ الأخيارِ بذكرِ عذابِ الأشرارِ

عندَما ذكرَ اللّهُ تعالى حالَ الكُفّارِ في العذابِ، وخصومتَهم فيهِ واستحقاقَهم ذلك جزاءً لأعمالِهم؛ عقَّبهُ ببيانِ حالِ مَن هم ضدُّ أولئك، وذلك ببيانِ ثوابِهم في جنّاتِ النَّعيم[1]، كعادةِ القرآنِ في المقارنةِ بينَ مصيرِ الأشرارِ ومَصيرِ الأخيار[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: (خلص) أصلٌ مُطَّردٌ يدلُّ على التَّنقيةِ والتَّهذيبِ، خلصَ الشَّيءُ نفذَ نقيًّا من أثناءِ ما كانَ يُخالِطُهُ، أوْ يَشوبُهُ[3]، ويقال: خلَّصتُهُ، أي: نَحَّيتُهُ مِن كلِّ شيءٍ يَنشَبُ تخليصًا[4]، والخالصُ هو ما زالَ عنهُ شَوْبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيهِ، يقولُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: 139]، أي: لهم خاصَّةً دونَ الإناث، وتخلَّصتَ مِنَ الشَّيْءِ تخلُّصًا؛ إذا سَلِمْتَ مِنْهُ، ومنه قولُهُ سُبحانه: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80][5]، والإخلاصُ: التَّبرّي عن كلِّ ما دونَ اللّه تعالى[6]، والمُخلِصونَ اسمُ فاعل: وهُمُ الَّذين كانت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلص).
(4) الخليل، العين: (خلص).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).

حياتُهم لله، والمُخلَصون اسمُ مفعولٍ، وهُمُ المُختارونَ[1]، ومعنى ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ اختارَهم الله لولايتِهِ، ونجّاهم من عذابِ الجَحيم[2].

2) ﴿رِزْقٌ﴾: (رزق) أصلٌ يدلُّ على ما بهِ قَوامُ الجِسمِ ونَماؤُهُ، منَ الغِذاء، يقولُ سُبحانه: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37][3]، والرِّزقُ ما يُطعَمُ بهِ، ويُنتفَعُ[4]، وأُطلِقَ على العَطاء[5]، يقولُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3]، أي: من المالِ والجاهِ والعِلمِ[6]، ومعنى ﴿رِزْقٌ﴾ في الآية: الطَّعامُ الَّذي ينالُهُ أهلُ الجنَّةِ[7].

3) ﴿مَّعْلُومٌ﴾: (علم) يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به من غيرِهِ، وبه تتمُّ الدَّلالةُ والاهتداءُ[8]، ومنهُ العلامةُ، أي: السِّمةُ، والعَلَم هو الجبلُ الطَّويلُ، والجمعُ الأعلامُ، والإخبارُ بالعلامَةِ هو الإعلامُ، ومنه جاء مَعنى العِلْم، يُقالُ: تعلَّمتُ الشَّيءَ؛ إذا أخذتَ علمَهُ، والعِلْمُ بمعنى إدراكِ علاماتِ الأشياءِ، وهو نقيضُ الجَهْلِ، ويُطلَقُ على الشُّعورِ أيضًا، يقال: ما عَلِمْتُ بخَبرِكَ، أي: ما شَعَرْتُ بِهِ[9]، والمَعلومُ: هو ما أدْرَكَهُ عِلْمُكَ، والمَعْلومُ أيْضًا: ما كانَت لَهُ عَلامَةٌ دالَّةٌ على جودتِهِ غالبًا[10]، ومعنى ﴿مَّعْلُومٌ﴾ في الآية: أنَّه رِزْقٌ مَرغوبٌ فيه مَضمونٌ مُحدَّدٌ[11].

4) ﴿فَوَٰكِهُ﴾: أصلُها مِن (فكه)، هي جمعُ (فاكهةٍ)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طيبٍ واستطابةٍ، ومِن ذلك الرَّجُلُ الفَكِهُ: الطيِّبُ النَّفْس، ومنه: الفاكهةُ؛ لأنَّها تُستَطابُ، وتُستطرَف، والمُفاكهَةُ هي المُزاحَةُ، وما يُستحلَى من كلام، وسُمّيتِ الحلواءُ فاكهةً لخفَّتِها على النَّفس[12]، والفاكهةُ هي الثِّمارُ كلُّها، وهي ما يُتنعَّم بها، ومنهُ قولُه سُبحانه:

(1) الخليل، العين: (خلص).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(9) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (علم).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (علم).
(11) ابن عطية، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فكه).

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: 18]، ومنهُ أُطلِقَ التَّفكُّهُ على الفَرَحِ[1]، ومعنى ﴿فَوَٰكِهُ﴾ في الآيةِ: طيِّبُ الثِّمارِ.

5) ﴿مُّكْرَمُونَ﴾: (كرم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الشَّرفِ والتَّنزُّه، والكَرَمُ: شرَفُ الرَّجُلِ، وتكرَّمَ عن الشائِنات، أي: تنزَّهَ، وأكرمَ نفسَه عنها، ورفعَها، وضدُّهُ اللُّؤْمُ[2]، ومنَ الكرمِ الجودُ؛ لدلالتِهِ على الكثرةِ، والعربُ تقولُ: هذه البلدةُ إنَّما هي كَرَمةٌ ونَخلةٌ، يعني بذلك الكَثرة، وكَرُمَ السَّحابُ: أتى بالغَيث، وأرضٌ مَكرُمةٌ للنَّبات؛ إذا كانت جيِّدة النَّبات[3]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أنْ يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يَلحقُهُ فيه غَضاضةٌ، ومعنى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ في الآية: مُشرَّفونَ بأشرفِ تعامُلٍ[4].

6) ﴿سُرُرٍ﴾: مِن الجذر (سرر)، ولفظُ (سُرُر) جمعُ (سرير)، ويدلُّ على الخفيِّ والخالصِ والمُستقرِّ، فالسِّرُّ خالصُ الشَّيءِ، وسرُّ كلِّ شيءٍ جوفُهُ، والسُّرورُ هو انشراحُ الصَّدرِ، والخُلوصُ من الحُزْنِ، والسَّرّاءُ ضدُّ الضَّرّاء: النِّعمةُ؛ لأنَّ بها السُّرورَ[5]، ومن مَعنى الاستقرارِ والاطمئنانِ والدَّعَةِ جاءَ لفظُ (السّرير)، وهو الَّذي يُجلسُ عليهِ منَ السُّرورِ؛ إذ كان ذلك لأولي النِّعمةِ[6]، وهو المقصودُ بالسُّرُرِ في الآيةِ.

7) ﴿يُطَافُ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحفَّ بهِ[7] إلى درجةِ الغَشَيان كالطّوفانِ يَعُمُّ حدودَه[8]، والطّوافُ: المَشْيُ حولَ الشَّيْءِ، ومنه: الطّائفُ لمَن يدورُ حولَ البُيوتِ حافِظًا، ومنهُ الخادِمُ، والطّوّافونَ الخَدَمُ[9]، ومَعنى ﴿يُطَافُ﴾ في الآيةِ: يدورُ حولَهم، ويَغشاهُم خدمةً لهُم.

8) ﴿بِكَأْسٍ﴾: هو الإناءُ الذي يُشرَبُ فيه ما دامَ الشَّرابُ فيه، ويُطلَقُ على الإناءِ

(1) الخليل، العين: (فكه).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (كرم).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سر).
(6) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (سر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طوف).

مُمتلئًا، يقال: شَرِبْتُ كأسًا، وكأسٌ طيّبةٌ، يعني بها: الشَّرابَ، يقولُ سُبحانه: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: 18][1]، وخُصَّتِ الخمرُ بالكأسِ حتى شاعَ إطلاقُ الكأسِ عَلَيها، ولعلَّ أقربَ أصلٍ لُغويٍّ إليها هو (كاسَ) منَ الكَيْسِ، وهو ما فيه غورٌ شديدٌ معَ شدَّةِ التَّماسُك[2]، ومعنى: ﴿بِكَأْسٍ﴾: الشَّرابُ الطَّيِّبُ، وهو خَمْرُ الجَنَّةِ.

9) ﴿مَّعِينٍ﴾: يمكنُ ردُّ لفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾ إلى أصلين: الأوَّلُ هو (معن)، ويدلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ وتباعُدٍ[3]، ومَعَنَ الماءُ: جَرَى، وماءٌ مَعينٌ، وأمعَنَ الفرسُ تباعدَ في عَدْوِهِ، وأمعَنوا في بلدِ العَدوِّ: تباعَدوا[4]، ورجلٌ مَعْنٌ في حاجتِهِ: سَهْلٌ، والأصل الثاني: هو (عينٌ) منَ العَين، وهي: الجارحةُ، ومنهُ عينُ الماءِ النّابعةُ لمائِها وصفائِها، أو ظُهورِها للعَين، وأمعنَتِ الأرضُ: رويَتْ، وكلأٌ مَمْعونٌ: جَرَى فيه الماءُ، ومَعَنَ الوادي؛ إذا كثُرَ فيه الماءُ المَعينُ[5]، ومعنى ﴿مَّعِينٍ﴾ في الآية: جارٍ وصافٍ كماءِ النَّبْعِ.

10) ﴿بَيْضَآءَ﴾: مؤنَّثُ أبيضَ، من (بيض)، وأصلُهُ البَياضُ منَ الألوانِ، واشتُقَّ منهُ بَيْضَةُ الدَّجاجِ، ولدلالةِ الأبيضِ على النَّقاءِ قالتِ العربُ: فلانٌ أبيَضُ، وفلانة بيضاءُ لنَقاءِ العِرْضِ منَ الدَّنَسِ والعُيوب، ولا يَذهبونَ بِهِ إلَى بياضِ اللَّوْنِ، ولكنَّهم يُريدونَ المَدحَ بالكَرمِ ونَقاءِ العِرْضِ من العُيوبِ والأدْناس، يقولُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]؛ تعبيرًا عن المَسرَّة والنَّضارةِ والبِشر[6]، ومعنى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ في الآيةِ: مُشرِقةُ اللَّونِ صافيةٌ[7].

11) ﴿لَذَّةٍ﴾: (لذذ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طيبِ طعْمٍ في الشَّيءِ[8]، ويعُمُّ كلَّ استطابةِ وقْعِ شيءٍ على الحسِّ لمُناسبتِهِ إيّاه معَ لُطفِهِ وخفَّتِهِ، كالشَّرابِ للُطفِهِ ونُعومتِهِ، يقولُ سُبحانه: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [محمد: 15]، وكمسِّ الشَّيءِ الأملَسِ، وكاستماعِ الكلامِ المُحبَّبِ، وكطيبِ النَّومِ، وضدِّ الألَمِ[9]، ومعنى ﴿لَذَّةٍ﴾ في الآية: طَيِّبَةُ المَذاقِ.

(1) الزبيدي، تاج العروس، والراغب، المفردات: (كأس).
(2) ابن سيده، المُحكَم، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كاس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (معن).
(4) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (معن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بيض).
(7) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لذذ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، والزبيدي، تاج العروس: (لذذ).

12) ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: (شرب) يدلُّ على تناوُلِ كلِّ مائعٍ، ماءً كانَ أو غيره، وهو "سَحْبُ الماءِ أوِ اللَّطيفِ إلى الجَوْفِ، أي: مصُّهُ وإنفاذُهُ إلى الأثناءِ بقوَّة"[1]، يقالُ: شَرِبْتُ الماءَ أشرَبُهُ شَرْبًا، وهو المصدرُ، والشُّرْبُ الاسمُ، والشَّرب: القومُ الَّذين يَشْرَبون، والشِّرب: الحظُّ مِنَ الماءِ[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21]، ومعنى ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: لِمَنْ يتناولُ تلك الكأسَ، ويَستطيبُها.

13) ﴿غَوْلٌ﴾: (غول) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خَتْلٍ وأخْذٍ مِن حيثُ لا يَدري، يقالُ: غالَهُ يَغولُهُ: أخَذَهُ من حيثُ لم يَدرِ، والغَوْلُ: إهلاكُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يَحُسُّ به[3]، ويقال: غالَتْهُ الخَمْرُ تَغولُهُ غَوْلًا؛ إذا شَرِبَها، فذَهَبَتْ بعقلِه، ويُطلَقُ الغَوْلُ على الصُّداعِ[4]، ومعنى: ﴿غَوْلٌ﴾ في الآية: إيذاءُ العقلِ وإضرارُهُ[5].

14) ﴿يُنزَفُونَ﴾: (نزف) أصلٌ يدلُّ على نَفادِ شَيءٍ بتدرُّجٍ إلى انقطاعِه، مِن: نَزَفَ الماءُ مِنَ البئرِ: نزحَهُ شيئًا بعدَ شيءٍ[6]، ونَزَفَهُ الحجّام: أخْرَجَ دَمَهُ كلَّهُ[7]، ونُزِفَ دمُهُ: خَرَجَ كلُّهُ، ونزفَ السَّكرانُ، أي: نُزِفَ عَقلُهُ[8]، ومعنى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ في الآية: لا يَذهَبُ العَقلُ بالسُّكْرِ.

15) ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾: (قصر) أصلٌ يدلُّ على الحَبْسِ عنِ الغايةِ والنَّقصِ، فالقِصَرُ نقصٌ: خلافُ الطّولِ، ويقالُ: قصَّرتُ الثَّوبَ والحبلَ تَقصيرًا، ومنهُ الحَبْسُ دونَ الوُصولِ إلى الغاية[9]، والقَصْرُ: كفُّكَ نفسَك عن شيءٍ، ولذلك سُمّيَ القصرُ غايةً، يُقالُ: قُصاراهُ كذا، أي: حَدُّهُ[10]. والقُصورُ: العَجْزُ والتَّواني، وأقصرتُ عنهُ؛ إذا نَزَعْتَ عنهُ، وأنتَ قادرٌ عليه، وقَصَرَهُ؛ إذا حَبَسَهُ، ومعنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الآية: أنَّ حورَ الجِنان يَكفُفْنَ أبصارَهُنَّ، ويَحبِسْنَها على أزواجِهِنَّ.

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غول).
(4) الخليل، العين: (غول).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نزف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نزف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصر).
(10) الخليل، العين: (قصر).

16) ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾: (طرف) أصلٌ يدلُّ على حدِّ الشَّيء وحَرْفِه، ويُستعمَلُ في الأجسامِ والأوقاتِ وغيرِها[1]، يقالُ: أشارَتْ بطَرْفِ إصْبَعِها، وطَرَفُ كلِّ شيءٍ مُنتهاه[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: 114]، وطَرْفُ العَينِ: جَفْنُهُ[3]، والطَّرْفُ مفردًا مُعرَّفًا "اسمٌ جامعٌ للبَصَر، لا يُثنّى، ولا يُجمَعُ"[4]، واشتُقَّ مِنَ الطَّرْفِ فِعلُهُ، فالطَّرْفُ: إطباقُ الجَفْنِ على الجَفْنِ، يقال: شَخَصَ بصرُه، فَما يَطْرِفُ[5]، ومعنى ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ في الآية: أجفانُ نساءِ الجَنَّةِ، يَقصُرْنَها على أزواجِهنَّ[6].

17) ﴿عِينٌ﴾: (عين) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على عُضْوٍ به يُبصِرُ، ويَنظُرُ[7]، والعَين هي الجارحةُ، يقولُ سُبحانه: ﴿وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [التوبة: 92]، ومنها اشتُقَّتْ معاني العَين، فالعَينُ للماءِ لشِبْهِهِ بالجارحةِ صَفاءً، وللذَّهب؛ لأنَّه أصلُ المالِ وأفضلُهُ، وعينُ الشَّيءِ ذاتُهُ؛ لأنَّه يرى بالعينِ، ويُعاينُ، وأعيانُ القومِ أفاضلُهم، ومن العَيْنِ العَيْنُ، وهو حُسنُ العَيْنِ، أوْ سِعَتُها وعِظَمُ سَوادِها[8]، أوْ نَفاذُ بَصَرِها[9]، يقالُ: أعْيَن وعَيْناء، والجمعُ عينٌ، وهو المقصودُ بلفظِ ﴿عِينٌ﴾ في الآية، أي: حُسنُ أعيُنِهنَّ ونفاذُ بَصَرِها.

18) ﴿بَيۡضٌ﴾: جمعٌ مفردُهُ البَيضةُ، وهي ما يَضَعُهُ الطّائر[10]، وأُخِذَ من لَونِ البَياض؛ دلالةً على النَّقاء، تقولُ العربُ: فلانٌ أبيَضُ، وفلانةٌ بيضاءُ؛ لنَقاء العِرْضِ مِنَ الدَّنَسِ والعُيوب، ويُكنّى بالبَيضةِ عن الصّيانةِ والرِّقَّة[11] وصفاءِ اللَّوْنِ وجَمالِه[12]، ولفظُ ﴿بَيۡضٌ﴾ في الآية: هو البَيضُ المعروفُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طرف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طرف).
(3) الراغب، المفردات: (طرف).
(4) الخليل، العين: (طرف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (طرف).
(6) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(8) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عين).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (بيض).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيض).
(12) الراغب، المفردات: (بيض).

19) ﴿مَّكْنُونٌ﴾: جاءَ لفظُ ﴿مَّكْنُونٌ﴾ مِن أصلِ (كَنَّ)، ويدلُّ على سَتْرٍ وصَوْنٍ[1]، وكلُّ شيءٍ وقى شيئًا؛ فهو كِنُّهُ وكِنانُهُ، وكَنَنْتُهُ أكنُّهُ كَنًّا: جعلتُهُ في كِنٍّ، واكتَنَّتِ المرأة: سَتَرَتْ وجْهَها حياءً من النّاس، والإكْنانُ: ما أضمرتَ في ضميرِك، يقولُ ﷻ: ﴿أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، والإكنانُ: إخفاءُ الشَّيءِ بالشَّيء[2]، وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: 78]، أي: مَصونٍ[3]، ومَعنى ﴿مَّكْنُونٌ﴾ في الآيةِ: المستورُ المَصونُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ أهلِ الجنّة وما هم عليه من النّعيم المقيم

خاطبَ اللّه تعالى المُجرمينَ بأنَّهم ذائقو العذابِ الأليم، لكنَّ عبادَ اللّه ليسوا كذلك، أولئك الَّذينَ أخلصوا للّه بالطّاعة، فأخلصَهم اللّه لعبادتِه، فلهُم رزقٌ مُتميِّزٌ مرغوبٌ، مُحدَّدٌ في وقتِه، طيِّبُ الطَّعْم، حَسَنُ المَنظَرِ، دائمٌ غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوع، يتفكَّهونَ ممّا لذَّ، وطابَ، وهُم مُنعَّمونَ، فلا يرغبونَ في شيءٍ إلّا وجدوه في جنّاتٍ ليس فيها إلّا النَّعيمُ، يتقابلونَ جلوسًا على سُرُرِ الرّاحةِ مُتصافّينَ، لهم خدَمٌ يَطوفونَ عَلَيْهِم بإناءِ شرابٍ كثيرٍ جارٍ طيّبٍ صافٍ، يجدُ فيه الشّاربونَ كلَّ اللَّذَّةِ، لا يحملُ أذًى، ولا تُذهِبُ عقلًا، ولا تنقطعُ، وعندَهم الحيّاتُ المُحبّاتُ جميلاتُ العُيون، أزواجٌ من الصَّفاءِ والسِّترِ والصَّونِ كالبَيْضِ يُخفيهِ الرّيشُ في العُشِّ، فلم تمسَّهُ يدٌ، ولم تَعلُهُ غَبرةٌ.

هذا ما بشَّرَ اللّه عبادَهُ المُخلصين، إنَّه عطاءٌ مُتنوِّعٌ جزيلٌ تنشرحُ له الصُّدور، وتقرُّ به العُيون، وتَبتهِجُ له النُّفوسُ، وهم على مقاعدِ الرّاحةِ مُتقابلينَ يَشربونَ، ويَتحادثونَ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كن).
(2) الخليل، العين: (كنن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كنن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 35، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82 - 85.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ تكرارِ الاستثناءِ:

استثناء الضد من ضدِّه استدراك تعقيبي

تكرَّرَ الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بعدَ ذكرِهِ في الآيةِ السّابقة: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وليس الثاني استثناءً في الجزاءِ، لكنَّهُ استثناءُ حالٍ من حالٍ، أي: استدراكٌ؛ لأنَّه استثناءٌ مُنقطِعٌ، فحالُ الثّواني ليس كحالِ الأوَلِ، بمعنى: لكنَّ المخلصينَ لهم رزقٌ معلومٌ، فإنَّ حالَ عبادِ اللّه تامَّ الضديَّةِ لحالِ الظّالمينَ، فهو استدراكُ تعقيبٍ للكلامِ بما يُضادُّهُ[1]، والغرضُ مِنَ الاستدراك بيانُ الفرقِ بين جزاءِ الظّالمينَ وجزاءِ المُؤمنين، فالظّالمونَ يُجازَونَ بما عملوا جزاءً عادلًا، وأمّا المُؤمنونَ؛ فإنَّهم يُنعَّمونَ كَرَمًا وفَضْلًا ورَحمةً وإحسانًا، وليسَ في مُقابلِ العَمَل.

وجهُ تعريفِ (العباد) بالإضافة:

تشريفُ المُخلَصينَ إيناسٌ لهم، وتنويهٌ بعُلوِّ مَنزلتِهم

عرَّفتِ الآيةُ هذا الصِّنف بوَصفِ (العباد) المُضاف إلى لفظِ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تنويهٌ بهم وتقريبٌ[2]، كيف لا، والموقفُ موقفُ فزَعٍ؟ وقد أُمِرَ بالظّالمين إلى العذاب، فكانَ أن ضمَّ اللّه تعالى هؤلاءِ المخلَصينَ إلى اسمِهِ إيناسًا لهم وتنويهًا بمنزلتهم، وتعليلًا لكونِهم عِبادًا مُكرَمين، فإنَّ اسمَ الجلالةِ دالٌّ على كلِّ الأوصافِ الكماليَّة، ومَن كان مُضافًا إليه؛ فإنَّه يكتسبُ كلَّ إنعامٍ منه.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجَلالة:

ضمُّ العِباد المُخلَصين إلى حضرتِهِ شُمولٌ بجميلِ مِنَّتِهِ

أُظهِرَ لفظُ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بدلَ إضمارِهِ؛ للدَّلالة على ضمِّ هؤلاءِ العِباد إلى حَضْرته، ونسبتِهم إلى خاصَّتِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم هُم مَن رعى للإله الحقِّ مَقامه، في مقابلةِ آلهةِ الكفّار الَّذين أبَوا تركَ آلهتهم، فهؤلاء وحَّدوا اللّه، وأخلَصوا لهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.

نكتةُ وصفِ (العباد) بالمُخلَصين:

جـزاءُ الإخـلاصِ حُسنُ الخَلاصِ

وَصَفتِ الآيةُ عبادَ اللّهِ بـ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، ونكتةُ هذا الوصفِ هي الإشارةُ إلى تخليصِهم مِنْ عذاب يومَئذٍ[1]، وهو ما يشيرُ إلى تميُّزِ حالِ هؤلاء من حالِ الظّالمين يومَ القيامة، وما ذلك إلّا لإخلاصِهم لرَبِّهم في الدُّنيا، فقد أخلَصوا التَّوحيدَ والعِبادةَ للّه تعالى، فأُخلِصوا، ونُجّوا من صِنْفِ الظّالمينَ.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

تـزكـيـةٌ ونـجـاةٌ وتطمينٌ بتحقُّقِ وعْدِ الله

آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لشيءٍ في مادَّتِه وصيغتِه، فأمّا مادَّتُه؛ فتدلُّ على التَّخليصِ والتَّنقيةِ، وعلى التَّخلُّصِ، وهو النَّجاةُ، فأشارَ اللَّفظُ إلى فضلِ اللّه في تزكيتِهم واجتبائِهم في الدُّنيا، وفي تخليصِهم يومَ القيامةِ منَ الخُسرانِ والعَذاب[2]، وأمّا صيغتُهُ؛ فقد جاءت على صيغةِ (المفعول)؛ ليدلَّ على تحقُّقِ اجتبائِهم وخَلاصِهم، وهو ما يُشيرُ إلى تطمينِهم بوَعْدِ رَبِّهم أنَّه ناصِرُهم ومُنجّيهم.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

اسـتـحـضـارُ تـشـريـفِ المُـخـلَـصـينَ زيـادةُ حَسرةِ للمُشركين

عبَّرتِ الآية بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ مُعرَّفًا باللّام، الدّالِّ على أنَّهم صنفٌ معهودٌ عندَ المُخاطَبين، وهم الرَّسولُ ﷺ وصحبُهُ[3]، وفي ذلك دعوةٌ إلى استحضارِ حالِهم، وكيف كانوا في الدُّنيا مَحَلَّ استهزاءٍ وصدٍّ وظُلم، وأنَّهم هُمُ النّاجونَ اليومَ، وفي استحضارِهم بـ(ال) العهدية مزيدُ حسرةٍ للمُشركين.

توجيهُ القراءتينِ في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

لقراءةِ لفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ من قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

وجهانِ؛ إذ قرأ نافعٌ وأهلُ الكوفةِ اللَّفظَ ببناءِ الفِعل للمفعول: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أي: إنَّهم اختارَهم اللّه لعبادتِهِ وولايتِهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم أخلَصوا للّه دينَهم، فأخلصَهُم اللّه لولايته واجتباهُم، ونجّاهم[1]؛ إذ يلزمُ من كونِهِ مُخلَصًا أنْ يكونَ مُخلِصًا، في حين قرأ الباقونَ اللَّفظَ ببناءِ الفعلِ للفاعل: ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾، أي: إنَّهم أخلَصوا للّه العبادةَ والبلاءَ الحسَن[2]، ولا يلزمُ منهُ أنْ يكونَ مُخلَصًا، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ درجةَ المُخلَصين أعلى من درجةِ المُخلِصينَ.

الاجتباءُ مآلُ حُسنِ البَلاء

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبَعيد:

عبَّرتِ الآيةُ عن عبادِ اللّه بلفظِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، وهو اسمُ الإشارةِ الموضوعُ للبعيدِ الحسّيِّ؛ لكنَّه مُستعارٌ للبُعدِ المعنويِّ، ففي ذلك إشعارٌ بعلوِّ طَبقَتِهم ومَبلَغِ تميُّزِهم وبُعدِ مَنزلتِهم عمَّنْ عَداهم في الفَضل[3]، وفي تعريفِ المُسنَدِ إليه باسمِ الإشارةِ تنبيهٌ على أنَّهم قد استحقّوا ما يُسنَدُ إليهم؛ لأجلِ ما أُثبتَ لهم من صفةِ المخلوصيَّة[4].

مِن وُجوهِ الإعلاءِ التَّنويهُ بالمَنزلةِ واستحقاقُ الجَزاءِ

سرُّ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿لَهُمْ﴾:

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾ الواقعُ نعتًا للخبرِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ على الخبرِ ﴿رِزْقٌ﴾، فانتصبَ على الحاليَّةِ منه، ويدلُّ التَّقديمُ هنا على الاحتفاءِ بالمُخلصينَ من خلالِ اختصاصِهم بذلك دونَ غيرِهم، فهُم أهلٌ لهذا الجزاء، ولأجلِهم كان الثّوابُ الجزيلُ، ولهم خاصَّةً كلُّ الحَظْوةِ والتَّكريم.

مِن وُجوهِ الاحتفاءِ إظهارُ الاستحقاقِ ومَزيدُ الحَظْوةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

(2) مكي، الكشف: 2/ 9 - 10، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 190.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

إيثارُ لفظِ (الرِّزق) نكرةً:

تعظيمُ العَطاءِ من وُجوهِ حُسْنِ الوَفاء

جاءَ لفظُ ﴿رِزْقٌ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ نكرةً؛ للدَّلالة على التَّعظيم[1]، فلهم رزقٌ أيُّ رِزْقٍ؟ إنَّه رِزْقٌ عظيم، يَتناسَبُ وتكريمَ المُخلَصين وكرمَ ربِّ العالَمين، وفي ذلك مزيدُ تشويقٍ لمعرفةِ هذا الرِّزق الَّذي يأتي تفصيلُهُ.

نكتةُ وصْفِ الرِّزق بـ﴿مَّعْلُومٌ﴾:

الجزاءُ الَّذي تقَرُّ به العُيون يُناسِبُ ما كانوا بِهِ يَرغَبون

وُصِفَ الرِّزقُ في النَّظم بـ﴿مَّعْلُومٌ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه معلومٌ عندَهم مُناسِبٌ؛ ممّا كان يطمعُ فيه أهلُهُ، وكانوا يَرجونَهُ، فهم يَنالونَهُ الآن، وفي ذلك قرٌّ لأعيُنِهم وإسعادٌ لرَجائهم[2]، ونلمحُ في هذا الوصفِ أنَّ الرِّزق المعلومَ هو الرِّزقُ الَّذي وُعِدوا به في الآياتِ، ممّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، فهو معلومٌ لهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم آمَنوا بالغيبِ المَوعودِ حتَّى صارَ معلومًا عندَهم لا يتردَّدونَ فيه، ففيه مدحٌ لهم بقوَّةِ إيمانهم بالغيبِ ووعدِ اللّٰه لهم.

الرِّزقُ مَضمونٌ معلومُ الوقتِ والخَصائص

وجاءَ لفظُ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ والتَّنويعِ والكمال، فهو معلومٌ بكلِّ الأشكالِ المُناسبة، وهو رزقٌ معلومُ الوقتِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62]، ومعلومُ الخصائص[3]، مِن طيبِ طعْمٍ ورائحةٍ ولذَّةٍ وحُسنِ منظَرٍ[4]، وهو رزقٌ مضمونٌ معلومُ المَوعِدِ لا يتخلَّفُ عن ميعادِه، ولا ينتظرُهُ أهلُهُ[5].

سرُّ حَصْرِ الرِّزقِ بـ(الفواكه):

طعامُ التَّفكُّهِ والتَّلذُّذِ والاستغناءِ عن القوتِ أمارةُ كمالِ السَّعادة

حُصِرَ (الرِّزقُ) في (الفواكه) في قوله: ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ﴾؛

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 471.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

ليكونَ المقصودَ بالذِّكر لكونِه واقعًا بدَلًا، وليدلَّ على أنَّ رِزقَهُم كلَّهُ فواكِهُ[1]، فصارَ طعامُهم للتَّلذُّذِ لا للحاجةِ، وما ذلك إلّا لاستغنائِهم عن القوتِ وحِفظِ الصحَّة[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى كِفايتهم وكمالِ سَعادتهم بالتَّفكُّهِ والتَّلذُّذِ.

نكتةُ تنكيرِ (الفواكه) وجمعُها:

رِزْقُ المُخلَصين لا يُفقدُ ولا يُسأمُ

عبَّرتِ الآيةُ عن لفظِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ في قوله: ﴿رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُ﴾ بصيغةِ الجمع المنكَّر؛ ليدلَّ هنا على التَّكثيرِ والتَّنويع[3]، فهي فواكهُ كثيرةٌ لا تَنقضي، ومُتنوِّعةٌ لا يَسأمُ أهلُ الجنَّةِ منها، وفي ذلك إشارةٌ إلى تطمينِهم، فلا انقطاعَ لها، ولا سأمَ منها.

بلاغةُ الإيجازِ في لفظِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾:

جـــزاءُ المِـحَـنِ والابـتـلاءِ كمالُ الصِّحَّةِ ودوامُ النَّعماء

تضمَّنَ لفظُ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من قوله: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ إيجازًا بديعًا؛ إذ قُصِرَ الرِّزقُ في الفواكهِ، وفي هذا القصرِ إشارةٌ إلى تَمامِ أجسادِهم ودَوامِ صِحَّتِهم، فلا يَمرَضونَ، ولا يَعجزونَ، ولا يَهرمونَ[4]، وفيها إشارةٌ أيضًا إلى دوامِ التَّنعُّمِ الَّذي يَنالونه في الجنَّة، وإنْ كانت حياتُهم الدُّنيا حياةَ مِحَنٍ وابتلاءاتٍ[5].

دلالةُ (الواو):

إردافُ التَّكريمِ الحسّيِّ بالتَّكريمِ المعنويِّ

ابتدأتِ الجملةُ: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ بحرفِ (الواو)، ويمكنُ حملُها هنا على العَطف، أي: إنَّهم يُرزَقونَ رِزْقًا مَعلومًا، ويُلقّونَ بالحَفاوةِ والبَهجةِ[6]، فذكرتِ الآيةُ أوَّلًا العطاءَ الماديَّ، ثمَّ ثنَّتْ بالعطاءِ المعنويِّ[7]، ولا يمنعُ ذلك أنْ تُحملَ (الواوُ) على الحاليَّة[8]، أي: إنَّهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 42.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 12.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 268.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100.
(8) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 266.

وفي رزقِهم بالفواكهِ يُرزَقونَ بالحفاوةِ والتَّبجيل، وفي ذلك إشارةٌ إلى نيلِهم درجاتٍ من التَّكريمِ والعَطاءِ المعنويِّ الَّذي لا حدودَ لهُ.

وجهُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ (هم):

عبَّرتِ الآيةُ بالضَّميرِ الواقعِ مُبتدأً في قوله: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تميُّزِ الحُكمِ الَّذي يُذكَرُ بعدَه، وهو الإكرامُ لهُم، فصارَ الإكرامُ هو الأجلَّ والأهمَّ في هذا الجزاءِ، وصار ما سبقَهُ مُقدِّمةً إليه، وفيه أيضًا الإشادةُ بهؤلاءِ المُخلصينَ الَّذين استحقّوا التَّكريمَ.

الإكرامُ أعظمُ الجزاءِ للمُخلَصين

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ المفعول ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ بلفظ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ على هيئةِ اسمِ المفعول؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الإكرامِ عليهِم[1]، فهو إكرامٌ ليس بعدَه إكرامٌ، فمَن نالَهُ؛ فقد نالَ الفضلَ الكبير، وفيه دلالةٌ أيضًا على دوامِ الإكرامِ، فهو لا يَلحَقُهُ نقصٌ وهَوانٌ[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى كمالِ إكرامِهم.

مِنْ أفضالِهِ سُبحانه كمالُ الإكرامِ ودَوامُهُ

معنى ﴿فِي﴾:

جُرَّ لفظُ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بحرف ﴿فِي﴾؛ ليدلَّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى استحضارِ المَحَلِّ بعدَ بيانِ أفضلِ الكرامةِ، وأطيبِ المأكَلِ، فَللمقامِ مزيدُ كرامةٍ على تلك المَكرُماتِ، ويصلحُ حرفُ الجرِّ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالرِّزقِ والإكرام، وهو الأوْلى؛ ليكونَ مكانُ الرِّزقِ ومَحلُّ الحفاوةِ واحِدًا.

استحضارُ محلِّ الإكرامِ مِن تمامِ الإنعام

علَّةُ جمعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾:

جُمِعَ لفظُ (الجنّات) في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ ليدلَّ ذلك على التَّوزيع، فلكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ المُكرَمين جنَّتُهُ ورياضُهُ، لا يُشرِكُه

مِنْ وُجوهِ المكرُماتِ التَّفرُّدُ والتَّنوُّع في الجنّات

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.

فيها أحدٌ، وهذا من كمالِ المَكرُمةِ، ويدلُّ الجمعُ أيضًا على التَّكثير؛ فللمُخلصينَ جنّاتٌ بعدَها جنّات، كلَّما دخلوا جنَّةً؛ استشرفوا إلى ما بعدَها، وفي التَّعدُّدِ مزيدُ إكرامٍ.

نكتةُ إضافةِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

ليسَ في الجنّاتِ إلّا النَّعيمُ

عُرِّفتِ (الجنّاتُ) بإضافتِها إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وفي تعريفِها بذلك دلالةٌ على أنَّها ليسَ فيها إلّا النَّعيم[1]، فليستْ كجنّاتِ الدُّنيا فيها تعبٌ ونصَبٌ، ولا تصفو إلّا معَ عمَلٍ دؤوبٍ؛ سقايةً وتهذيبًا وحرثًا وتوضيبًا، أمّا جنّاتُ الآخرة؛ فهي للنَّعيم، فالإضافةُ هنا على معنى (لام الاختصاص) المُفيدةِ للحَصْرِ[2]، ونسبةُ الجنّاتِ إلى النَّعيم دليلٌ على استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيهِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، وهو أمرٌ معنويٌّ بذاتٍ له جنّاتٌ، ثمَّ حذفَهُ، وجعلَ الاختصاصَ قرينةً تدلُّ عليه، فيكونُ في إضافةِ الجنّات للنَّعيم تخييلٌ وصولًا إلى كمالِ تلك الجنّات جَمالًا ونَعيمًا وسُرورًا.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

كمالُ النَّعيمِ بعضٌ من أفضالِ المُنعِم

عرَّفَ النَّظمُ لفظَ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بـ(ال) الدّالَّةِ على كمال الجنس، أي: إنَّ نعيمَها هو أكملُ نعيم، فلا يُتصوَّرُ فيها غيرُهُ[3]، ولا يُتصوَّرُ قصورُ النَّعيم فيها عن تمامِهِ؛ أليس المُنعِّمُ هو ربَّ العزَّة؟ وفي ذكرِ كمالِ النَّعيم مقابلةٌ لكمالِ الجحيمِ السّابقِ في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

التَّمكُّنُ في المَجلسِ زيادةٌ في التَّنعُّم

عبَّرتِ الآيةُ بتحديدِ مَكانيٍّ آخَرَ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ ليدلَّ على الاستعلاءِ والتَّمكُّنِ، فهُم جالِسونَ على

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 83.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.

سُرُرٍ[1]، وهم متمكِّنونَ على تلك السُّررِ في راحةٍ تامَّةٍ، وفي ذلك مزيدُ تنعُّمٍ، وفي ذكرِ كَوْنِ الرِّزقِ والإكرامِ في الجنّاتِ وتحديدِ السُّرُرِ مَحَلًّا آخَرَ للإكرامِ؛ لبيانِ أنَّ مكانَهُم في تلك الجنّاتِ على الأسِرَّةِ، وليسَ على أرضِ الجنَّةِ وإنْ كانتْ مِسْكًا وغَرْسًا عظيمًا.

سرُّ جمعِ ﴿سُرُرٍ﴾ وتنكيرُهُ:

جلوسُ المُكرَمينَ ارتياحٌ ونعيمٌ

جاءَ لفظُ ﴿سُرُرٍ﴾ جمعًا منكَّرًا في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ ليدلَّ جمعُهُ على تعدُّدِ الأسِرَّةِ بتعدُّدِ أصحابِها، فلكلٍّ واحدٍ سريرُهُ الخاصُّ به كالمُلوك[2]، وليدُلَّ الجمعُ على كثرتِها وتعدُّدِ استعمالِها، ومَواضِعِ وُجودِها بما تُعطي مِن راحةٍ، ويدلُّ تنكيرُ لفظِ ﴿سُرُرٍ﴾ على تفخيمِها؛ لأنَّ الجلوسَ عليها هو جلوسُ أهلِ النَّعيم[3].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

يُزادُ الأُنسُ بالإقبالِ على الصَّديقِ ورُؤيةِ الرَّفيقِ

عبَّر النَّظمُ بلفظِ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ للجالسينَ على السُّرُرِ، ويدلُّ معنى التَّقابُلِ هنا على المواجَهةِ، وتدلُّ صيغةُ (التَّفاعُل) على أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يلقَى الآخَرَ بوجهِهِ مُقبِلًا[4]، وفي ذلك أتمُّ الأُنس؛ لأنَّ فيه أُنْسَ الاجتماعِ، وأُنْسَ نظَرِ بعضِهم إلى بعضٍ، وفي رؤيةِ الحبيبِ والصَّديقِ أنسٌ للنَّفْسِ[5].

دلالةُ الحاليَّةِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

بصفاءِ السَّرائرِ تخلو الخواطِرُ ويَنتفي التَّدابُر

جاءَ لفظُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالًا لأصحابِ النَّعيم أثناءَ جلوسِهم على السُّرُرِ، ودلَّ الحالُ هنا على الأُنْسِ بينهم، حتَّى قابلَ كلُّ واحدٍ مِنهم الآخَر، فلا تدابُرَ ولا تقاطُعَ،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.

كما دلَّ على السُّرورِ بالتَّلاقي، فلا كُلفةَ بينَهم، ولا يكونُ ذلك إلّا معَ خُلوِّ الخواطر وصفاءِ السَّرائر[1]، وذلك من النَّعيمِ أيضًا.

موقعُ جملةِ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾:

مِن تمامِ نعيمِ الوهّابِ المِنَّةُ بلذيذِ الشَّراب

عبَّرتِ الآيةُ بجُملة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بعدَ ذكرِ استقرارِ أهلِ الجنانِ على سُرُرٍ مُتقابلين، ويمكنُ أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفة - لا محل لها من الإعراب - لبيانِ صفةِ المَشرَبِ بعدَ بيانِ صفةِ المَأكَلِ والمَسكَنِ[2]، فإذا ذُكِر نعيمُ الطَّعام ونعيمُ المقام وأُنسُ الخُلّان؛ تاقتِ النَّفس إلى لذيذِ الشَّراب، ويمكنُ حملُ الجُملةِ على الحاليَّةِ، أي: إنَّهم وهم على أسِرَّتِهم مُتقابلين يسارعُ الخدمُ بتلك الآنيةِ يطوفونَ حولَهم كالمُلوك[3]، كما يحتمل أن تكون الجملة صفة لـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[4]، لإفادة توكيد المعنى وتعظيمه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿يُطَافُ﴾:

مزيدُ التَّهنّي بخدمةٍ لا تَني

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ ﴿يُطَافُ﴾ في قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ المضارعِ المبنيِّ للمفعول؛ وعلَّة كونِه فعلًا مضارعًا الدَّلالةُ على تجدُّدِ الطَّوافِ عليهم حينًا بعدَ حينٍ، لا يتوقَّفُ الخدمُ بالمدَد، ولا يفترونَ عنِ الخِدمة، ويدلُّ البناءُ للمفعولِ على أنَّ المقصودَ هو الطَّوافُ لا كونُهُ من مُعيَّنٍ، فلا يُلتفتُ إلى الخادمِ بقدرِ ما يُرفَّهُ المَخدومُ[5].

مَعنى (على):

بإدلاءِ الشَّرابِ يُكرَّمُ الأطياب

آثَرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بحرفِ (على) في قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ دون (بينهم) أو (فيهم)؛ وذلك لدلالةِ (على) على الاستعلاءِ، فقد زادتِ المعنى دلالةً خاصَّة، وهي أنَّ طوافَ الخَدَمِ بالمُكرَمين،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 42، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.

وهم يُدلونَ إليهم من جهةِ العُلوِّ؛ ليكونَ أشرفَ لهم وأصونَ، وفي ذلك مزيدُ إكرام[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ الخدمَ واقفونَ على رُؤوسِهم، والمخدومونَ جالِسونَ على أسِرَّتِهم، وهم يَقومونَ بالخدمةِ عليهم.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِم﴾:

الطّوافُ بالكؤوس تشريفٌ للنُّفوس

في لفظِ ﴿عَلَيْهِم﴾ من قولِهِ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ ضميرُ جمعِ الغائِب، العائدِ على أصحابِ الجَنّات، وفي إضمارِهِ إحالةٌ إلى المُكْرَمينَ المُنعَّمينَ بالرِّزقِ والفاكهةِ ومَجالسِ الأُنْسِ، وهي إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَتناوَلونَ ذلك بأنفُسِهم، بل يُطافُ عليهم بالكُؤوسِ، وهو دليلُ الخِدمةِ والتَّرفُّهِ[2].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِم﴾:

تخصيصُهم بالسِّقايةِ لمزيدِ العِناية والحَفاوة

قدَّمَ النَّظمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِم﴾ في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ على متعلِّقِ الطَّواف ﴿بِكَأْسٍ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ بالمُكرَمين، فهُم المقصودونَ بالطَّوافِ والخِدمة، وما الطَّوافُ بالكأسِ الصّافيةِ إلّا لأجلِهم، وبذكرِ المُرفَّهِ تظهرُ قيمةُ الكأسِ المُقدَّمةِ إليهم ونوعيَّةُ الخِدمة التي تؤدَّى لهم.

معنى (الباء) في ﴿بِكَأْسٍ﴾:

تحديدُ آلةِ السَّقي والإكرامِ

جاءَ لفظُ (كأس) في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ مجرورًا بحرفِ (الباء)، ويُحتمل أن تكون الباءُ هنا باء التَّعديةِ أو الآلة، فلا يطوفُ الخدمُ على المُكرَمين بلا مَعنًى، بل لأجْل سَقيهم بكأسٍ مِن مَعين، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الطَّواف عليهم إنَّما هو لأجلِ مُهمَّة، فهُم أبدًا في خدمةٍ؛ كلَّما نقَصَتْ كأسٌ زادوها، ففي تحديدِ آلةِ السَّقي، وأنَّه يكونُ بالكأسِ، تمييزٌ لإكرامِهم، فهُم لا يَشربونَ إلّا مِن كأسٍ مُقدَّمةٍ لهم دونَ الغَرْفِ أو الشُّرْبِ بآلاتٍ أُخرى،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100.

وإنْ كانتِ (الكأس) مَجازًا عمّا فيها، فإنَّ (الباء) للتَّوكيد، أي: يَشربونَ كأسًا.

ويُحتمل أن تكون الباء هنا للملابسة بمعنى (مع) تتعلق بحالة محذوفة عن الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ وهي حال سببية والتقدير: ملابسا الطائف عليهم كأسًا[1].

نكتةُ تنكيرِ (كأس) وإفرادِها:

كـــأسٌ تـزيـدُ الأنسَ بالجليسِ

جاءَ لفظُ (كأس) في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ نكرةً مُفردًا، ونكتةُ تنكيرِهِ هي التَّفخيمُ، فهي كأسٌ عظيمةٌ يَحارُ العقلُ في تصوُّرِ جَمالِها وكَمالِها، وممّا زاد خصوصيَّةَ (الكأسِ) مجيءُ لفظِها مُفردًا مع أنَّ المَطوفَ عليهم كثيرونَ[2]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المرادَ بالكأسِ الآلةُ، وأمّا إنْ أُريدَ بالكأسِ (الخمرُ)؛ فإنَّ الكأسَ اسمُ جنسٍ يرادُ به الحقيقةُ، فهُم يطوفونَ عليهم بنوعٍ عجيبٍ من الخمرِ يلتذُّ به الشّاربونَ.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ (كأس):

مُتعةُ الشَّرابِ في مجالِس أُنسِ الأحباب

تضمَّنَ لفظُ (كأس) في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ مجازًا مُرسَلًا، علاقتُهُ إطلاقُ المَحلِّ على الحالِّ[3]، فقد ذُكِرَ (الكأسُ)، ولم يُقصدِ الإناء بقدرِ ما قُصِدَ الشَّرابُ، حتّى إنَّ الإناءَ لا يُعدُّ شيئًا إذا ما خلا مِن الشَّراب، فصارَ المقصودُ بالكأسِ ما حلَّ فيها، وحينئذٍ تكونُ (الباء) مَزيدةً للتَّوكيدِ، وليسَتْ للآلةِ أوِ التَّعديةِ، فهُم يَشربونَ الكأسَ نفسَها، فقد تعارفَ العربُ حتى اشتهرَ عندَهم إطلاقُ الكأسِ على الخمرِ، وما ذلك إلّا لتمتُّعِ شارِبِها بها وأُنسِها بمَجلِسِه، والكؤوسُ تدارُ عليهم، فشوَّقَهم المَولى تعالى إلى خَمْرِ الجنَّة؛

(1) قباوة، التفسير المفصل، ص: 1597.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 101، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.

ليَزدادوا بها تنعُّمًا، ولكنَّها ليستْ كخَمرِ الدُّنيا، ولا يبعُدُ أنْ يُرادَ بالكأس الآلةُ وما فيها معًا؛ إذِ الكأسُ لا يُطلَقُ على الآلةِ الفارِغَةِ من المَشروب، ويكونُ ذكرُ الآلة تحرُّزًا عن ذكرِ الخَمر، وشرفُ الكأسِ يُعطي شرَفًا لما فيه، وأنَّه يختلفُ ذلك المشروبُ عن خُمورِ الدُّنيا.

معنى ﴿مِّن﴾:

جُرَّ لفظُ ﴿مَّعِينٍ﴾ بالحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ ليدلَّ الحرفُ ﴿مِّن﴾ على الجنسِ[1]، أي: إنَّهم يَسقونهم شرابًا من جنسِ الشَّرابِ المَعينِ، أوْ شرابَ نهرٍ مَعين، على إضمارِ صفةٍ لـ(كأس)[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تميُّزِ الشَّراب، وأنَّه شرابٌ ليسَ كغيرِهِ مِنَ الشَّرابِ صَفاءً وجَرَيانًا.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾:

شـرابُ الجنَّة يجمَعُ بينَ جَريانِ الأنهار وصَفاءِ المَنابِعِ

آثرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿مَّعِينٍ﴾ في قوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، ويكمُنُ سرُّ ذلك في دلالتِهِ على معانٍ مُتعدِّدةٍ تبَعًا لأصلِ مَعناه، فيدلُّ على الجَرَيانِ والكَثرةِ، فلا تكادُ خمرُ الجنَّةِ تنقطِعُ لكثرتِها[3]، وهي تَجري أنهارًا[4]، ليستْ كخمرِ الدُّنيا مَعصورةً مُختزنةً[5]، وزادَهُ دلالةً مجيئُهُ على وزنِ المُبالغة (فعيل)[6]، فزادَهُ مبالغةً في دلالتَي الجَرْيِ والكَثرة، كما يدلُّ على النَّبعِ والظُّهور والصَّفاء، مِن (عانَ المَعينُ) باسمِ المفعول[7]، أي: إنَّها خمرٌ ظاهرةٌ رَقراقةٌ تنبعُ كما تنبعُ الماءُ، لا يُعالجونها بعَصْرٍ[8]، فجمعتِ الدَّلالةُ بينَ الجريانِ والكثرةِ كالأنهار وبينَ الصَّفاءِ كماءِ المَنابِعِ[9].

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 301.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 191، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.
(9) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.

وجهُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾:

خمرُ الجنَّةِ لا تنفَدُ، ولا تَنقطِعُ

جاءَ لفظُ ﴿مَّعِينٍ﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٍ﴾ نكرةً؛ ليدلَّ التَّنكيرُ على التَّكثير والتَّنويع، فهي خمرٌ، لا تنفَدُ لكثرتِها حتَّى جرَتْ أنهارًا في الجنَّةِ، وهي خمرٌ لا تنضُبُ؛ إذ هي قريبةُ المَأخَذِ تنبعُ كنَبْعِ الماءِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى امتلاءِ كُؤوسِهم خَمْرًا لا تنقطِعُ.

سرُّ الوصفِ بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾:

بهاءُ اللَّونِ ونَقاءُ الطَّعمِ يُغري بدوامِ التَّناوُل

وُصِفَ (الكأس) بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيۡضَآءَ﴾؛ لرُجوعِ وصفِ الخمرةِ باللَّونِ الأبيض إلى دلالةِ البَياض على الصَّفاءِ والحُسْنِ، فلونُ خمرِ الجنَّةِ حسَنٌ مُشرِقٌ بهيٌّ[1]، وهو ما يُغري بتناوُلِها، وخمرُ الجنَّةِ صافٍ نقيٌّ، وهو ما يدعو أيضًا إلى استساغتِها والارتواءِ منها؛ لأنَّها في غايةِ اللَّطافةِ تتلألأُ نورًا[2]، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ البياضُ وصْفًا لكلٍّ مِنَ الكأسِ والخَمرةِ معًا.

وجهُ تأنيثِ وصْفِ (الكأسِ):

الخَمْرةُ في الكأسِ بيضاءُ لا مثيلَ لَها في النَّقاء

جاءَ وصفُ (الكأس) بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيۡضَآءَ﴾؛ ليكونَ وصفًا مؤنَّثًا لموصوفٍ مُذكَّر، وهو (الخمر)؛ لأنَّه جرى تأنيثُ الوصفِ تبَعًا للتَّعبيرِ عن الخمرِ بلفظِ (كأس)[3]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ البياضُ وصْفًا للكأسِ ووصْفًا للخمرةِ معًا.

دلالةُ الوصفِ بالمصدرِ في ﴿لَذَّةٖ﴾:

خمرٌ هي اللَّذَّة عينُها لا يَمَلُّها الشَّاربُ

وُصِفتِ (الخمرُ) بلفظِ ﴿لَذَّةٖ﴾ في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وهو مصدرٌ، أي: ذاتِ لَذَّةٍ، وكانَ أصلُ العِبارة: (كأسٍ بيضاءَ ذاتِ لذَّةٍ أوْ لذيذة)، فَعَدلَ النَّظمُ عن الوصفِ إلى المصدرِ اتِّساعًا في

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 13.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.

الوصف؛ لإفادةِ المُبالغةِ في تمكُّنِ هذا الوصفِ[1]، فهي خمرةٌ ذاتُ لذَّةٍ هي أقصى اللَّذَّةِ حتَّى صارتِ الخمرُ نفسُها هي اللَّذَّةَ.

معنى (اللّام):

أُعِـدَّتِ الخمرُ لأجلِ الشّاربينَ إكرامًا

جُرَّ لفظُ (الشاربين) باللّام في قوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وهي لامُ الاختصاصِ والأجْلِ، فلأجْلِ الشّاربينَ أُعِدَّتْ هذه الخمرةُ النَّقيَّةُ الطَّيِّبةُ الطَّعْمِ الكثيرةُ الجاريةُ الرَّقراقة خصّيصًا لهُم، وفي ذلك إشارةٌ إلى كمالِ التَّكريمِ والتَّنعيم الَّذي ينالُهُ أصحابُ الجِنان.

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ (الشاربين):

كمالُ لذَّةِ الخمرِ داعٍ لـــدوامِ تناوُلِها

جاءَ لفظُ (الشاربين) في قوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ مجموعًا؛ ليدلَّ ذلك على تمكُّنِ وصفِ الشُّربِ مِن هؤلاء، فلهم شوقٌ عظيمٌ لتناوُلِها لأجلِ كَمالِ لذَّتِها، وقد جاءَ ذكرُهم بالجمعِ؛ لاستحضارِ المُزايدةِ بينَهم في درجاتِ لذَّتِها وحُسنِ مَذاقها، والتَّمتُّعِ بها، فلا يَصِفونها إلّا بكاملِ اللَّذَّةِ، حتى صارَتْ هي اللَّذَّةَ ذاتَها.

دلالةُ تعريفِ (الشّاربين):

خَـمْـرُ الـجـنَّـةِ يَرجوها شارِبُها أشدَّ الرَّجاء

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ (الشّاربينَ) مُعرَّفًا في قوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ودلَّ التَّعريفُ هنا على الجنسِ، أي: إنَّ خمرَ الجنَّةِ ذاتُ لذَّةٍ يشهدُ بها كلُّ مَن عاقرَ الخمرَ، وأدمنَ شُربَها؛ فهي تُفيد الشمول والعموم، وفي ذلك إشادةٌ بشرابِ أهلِ الجنَّة ومزيدِ تكريمٍ لهم بأحسنِ الأطايب.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ (الشاربين):

تـصـويـرُ تـمـامِ مَشهَدِ التَّنعُّمِ والـتَّـكـريـمِ في الجِنان

حُذِفَ مُتعلَّقُ (الشاربين) في قوله: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، مع أنَّه ظاهرٌ، وهو الخمرُ خاصَّةً؛ إذ لا يُذكرُ الشّاربُ مُنفردًا إلّا للخمرِ، والتَّقديرُ: (يشربون الخمرَ، أو مِنها، أوْ بها) على إرادةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.

الكأسِ، ونكتةُ ذلك إرادةُ العمومِ كما دلَّ عليه تقديرُ المُتعلَّقِ، ويحتملُ أنَّ (الشّاربينَ) لفظٌ أُريدَ بهِ اللّازمُ، فيكونُ القصدُ لذكرِ الفاعلِ خاصَّةً، أي: استحضارُ فعلِ الشَّرابِ ومُنادمةِ الخمرِ لذيذةً صافيةً بيضاءَ؛ تصويرًا لتمامِ مَشهدِ التَّنعُّمِ والتَّكريمِ في الجنان.

موقعُ جملةِ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾:

جاءَتْ جملةُ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ عقبَ وصفِ خمرِ الجنَّةِ بالمَعينِ والبَيضاءِ واللَّذَّة، وهي صفاتُ كمالٍ، وقد يخطُرُ في الذِّهنِ ما في الخمرِ من مثالبَ، فجاءتِ الجملةُ لتنفيَها[1]، فهي جملةٌ نعتيَّةٌ للكأسِ، تحقِّقُ التَّحفُّظَ، وتُنادي بالكمالِ، وتفيدُ الاحتراسَ.

نفيُ النَّقصِ نداءٌ بالكمالِ

سرُّ إيثارِ ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجِنس:

آثرَتِ الآيةُ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ دونَ النَّفي بـ(ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ(ما) يردُّ ردًّا على اعتراض[2]، والعربُ لم تكنْ تعترضُ على الخمرِ رغمَ ما فيها من عيوبٍ، فكانوا يُقرّونَ بعُيوبها مع أنَّهم يُعاقِرونها، ويأبَونَ تركَها؛ لذلك جاء النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ لإبعادِ تلك النَّقائص، كما أنَّ ﴿لَا﴾ موضوعةٌ لنَفْيِ الجنسِ على سبيلِ القَطْعِ دالَّةً على الاستغراقِ، وتفيدُ التَّوكيدَ والتَّحقيق، فلا يوجَدُ أيُّ غولٍ فيها، ولا مجالَ لإنكارِ كونِها خَمْرًا معَ كونِها لا تشتملُ على الغَوْلِ.

نـفـيُ عُـيـوبِ الخمرِ تنزيهٌ لها مِنَ النَّقائص

معنى (في):

عبَّرتِ الآيةُ بحرفِ (في) في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ، والمقصودُ هنا هو احتواءُ الخَمرِ على الهَلاك والصُّداعِ، فالغَولُ مُتضمَّنٌ في الخمر، كأنَّه مظروفٌ فيها، لَصيقٌ بها لا تخلو منه، ولا تنفكُّ؛ لأنَّهُ ناتجٌ عنها، فجعلَ النّاتجَ من الشَّيءِ كأنَّه فيهِ، وإنْ كان الهلاكُ قائمًا بالشّاربِ والصُّداعُ حاصلًا عندَهُ.

خَمْرُ الآخرةِ خُلْوٌ مِنَ الغَوْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 231.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 335.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا﴾:

خـمـرُ الـجـنَّـةِ نعيمٌ لا ضُرَّ فيهِ

عادَ الضَّميرُ في لفظِ ﴿فِيهَا﴾ من قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ إلى خَمْرِ الجَنَّة[1]، فهي خمرةٌ تخلو تمامًا مِنَ الضُّرِّ والإهلاك، فإنْ كانَ مِن غولٍ؛ ففي خمرِ الدُّنيا، إلّا أنَّ خمرَ الجنَّةِ نعيمٌ لا ضرَّ فيه.

سرُّ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿فِيهَا﴾:

خـمـرُ الـجـمـالِ تـنـاسِبُ تكريمَ أهلِ الجِنان

قُدِّمَ شبهُ الجُملة ﴿فِيهَا﴾ مِن قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ على اسمِ ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجنس، وذلك لإفادةِ التَّخصيص، أي: إنَّ الغولَ مُنتفٍ عن خمرِ الجنَّة فقط دونَ ما يُعرَفُ من خمورِ الدُّنيا، فالتَّقديمُ هنا هو قصرُ قلبٍ[2] قصْرَ صفةٍ على موصوف[3]، أي: إنَّ خمرَ الجنَّة وحدَها خاليةٌ تمامًا مِنَ الغول، وفي ذلك إشارةٌ إلى تفضيلِها على غيرِها، ومناسبَتِها لتكريمِ أهلِ الجنَّةِ.

بلاغة استعمال لفظ ﴿غَوْلٌ﴾ نكرةً:

أسبـاب تحريم خـمـر الـدنـيـا غائبة عن خمر الجنّة

جاء لفظ ﴿غَوْلٌ﴾ نكرة، ويدلّ تنكيره على انتفاء جنس الغول من أصله[4]؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفي للعُموم، فليسَ فيها أدْنى شيءٍ مِنَ الضُّرِّ صداعًا أوْ غيرَهُ وفي ذلك كمالٌ لهذه الخمر فهي لذّة خالصة ولا ضرّ فيها أصلًا، ونفي الغول الذي يعتري شاربي الخمر في الدنيا، باعتبارِه مقدمة التحريم التي تجعل العقول مغتالة، ولذلك ففي الآية إيماء صريح بأنَّ اغتيال العقول لن يكون في الجنّة، فهي لذة خالصة سائغة لا ضرر من ورائها.

توجيهُ العطفِ بتكرارِ ﴿وَلَا﴾:

لا أذًى في خَمْرِ الجنَّةِ، ولا ما يُذهبُ العَقل

عُطِفتْ جملةُ: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ على جملةِ الوصفِ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ بحرفِ (الواو) معَ تكرارِ (لا) النّافية، وهو مِن عطفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 256.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

الخاصِّ على العامِّ[1]؛ إذ بعدَ أنْ نفَتِ الجملةُ المعطوف عليها عن خمْرِ الجنَّة ما يُهلِكُ، ويضُرُّ؛ خصَّتْ من ذلك ما يُؤثِّرُ على العقلِ، ويُغيّبُهُ؛ لما لهُ من أثرٍ وخطَرٍ، فلذلك خصَّهُ دونَ غيرِهِ من صوَرِ الضُّرِّ[2]، وفي تَكرارِ (لا) مزيدُ تأكيدٍ على نفيِ ذلك ودوامِهِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمْ﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بالضَّميرِ ﴿هُمْ﴾ الواقعِ في صدرِ الجُملةِ الاسميَّة المُخبَرِ عنها بالفعلِ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾؛ لإفادةِ تقويةِ الحُكمِ معَ التَّخصيصِ، والضَّميرُ راجعٌ إلى المُكرَمينَ؛ لبيانِ أنَّ مِن إكرامِهم ألّا يَتعرَّضوا في شُرْبِ الخَمْرِ إلى ما يُهينُهُم، أوْ يُحقِّرُهم.

إثباتُ كرامةِ الأطيابِ، وتأكيدُ سَلامةِ الشَّراب

معنى (عن):

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿عَنْهَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ للدَّلالة على السَّببيَّة[4]، فهو بمعنى الباءِ، أي: ولا هُم بسببِ شُرْبِها تنزِفُ عقولُهم، وتختلُّ أفكارُهم، كما هي خمرُ الدُّنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى حفظِ مَقام شاربيها وصَوْنِ كَرامتهم، وإنَّما عبَّر عنِ السببيَّة بـ(عن) الموضوعةِ للمُجاوزةِ؛ لأنَّ النَّزفَ يصدُرُ عقيبَ شُربِها؛ فكأنَّه يتجاوزُ شُربَها؛ ليصلَ إلى الشّارب، فهي سببيَّةٌ تعقيبيَّة.

مَقامُ الشّاربينَ مَحفوظٌ وكرامتُهم مَصونةٌ

نكتةُ تقديمِ متعلِّقِ الخَبر:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنْهَا﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يُنزَفُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ خمرِ الجنَّة بذلك، فهي خمرٌ لا أثرَ لها أبدًا في نَزْفِ العقولِ، بخلافِ غيرِها مِن سائرِ الخُمورِ[5].

تميُّزُ خمرِ الجنَّة بكرامةِ أصحابِها

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 146.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 85، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 257.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 43.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 84.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

دلالةُ المُضارع المبنيِّ للمفعول ﴿يُنزَفُونَ﴾:

خمرُ الدُّنيا تأثُّرٌ دونَ شعورٍ وتجدُّدُ خَبالٍ ونَدَمٍ

جاءَ الفعلُ ﴿يُنزَفُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ مُضارِعًا مبنيًّا للمفعول، ويدلُّ على أنَّ النَّزفَ يقعُ لا بإرادةِ صاحبِه دونَ أنْ يشعُرَ، ويدلُّ المضارع على التَّجدُّدِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ خمْرَ الدُّنيا تُذهِبُ العقلَ شيئًا فشيئًا معَ تكرُّرِ شربِ صاحبِها[1]، ويتجدَّدُ إذهابُ العقلِ أيضًا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، يغيبُ، فيجهَلُ صاحبُهُ، ثمَّ يَستفيقُ، فيَندَمُ، ثمَّ يشرَبُ بعدَها، فيذهبُ عقلُهُ مرَّةً أُخرى، ويفعلُ أفعالَ المَجانين، ففي تكرارِ ذلك نفورٌ من الخَمرةِ وشُربِها، والآيةُ تنفي أيَّ تأثيرٍ لخمرِ الجنَّة في العقلِ إطلاقًا.

بلاغةُ الإيجازِ في وصْفِ الخَمْر:

تَوَقِّي خمرِ الدُّنيا والإقبالُ على خمرِ الآخِرة

جاءَ وصفُ خمرِ الجنَّة في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وصفًا موجَزًا بديعًا، فقد جمعَ في الجملتينِ جميعَ عُيوبِ خمرِ الدُّنيا، وأشارَ بالغَوْلِ إلى كلِّ مُفسِدٍ ومُهلِكٍ، من مغصٍ أوْ صداعٍ أوْ مرضٍ، وأشار بالنَّزفِ إلى الإسكارِ وما ينجرُّ عنه من العَربدةِ واللَّغْوِ والتَّأثيم[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُنزَفُونَ﴾:

قُبُحَتْ خمرٌ تُفقِدُ العقلَ، وتورِثُ الإثمَ

تضمَّنَ قولُه: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ استعارةً تمثيليَّةً؛ إذ شُبِّهَ عقلُ الشّاربِ بماءِ البئرِ في إفراغِهِ شيئًا فشيئًا إلى نَزْحِهِ تمامًا[3]، فصارَ شاربُ الخمرِ يَفقِدُ عقلَهُ رويدًا رويدًا دونَ أنْ يَدريَ، إلى أنْ يتحوَّلَ إلى مجنونٍ يُعربِدُ، ويَلغو، ويأثم، وإذا أُفرِغَ الإنسانُ من عقلِهِ؛ سقطَتْ كرامتُهُ، وزالَتْ هيبتُهُ، وتوقَّعَ النّاسُ منه كلَّ إثمٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 268.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

تعدد التكريم بتعدد الإكرام

قَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِكَسْرِ الزّايِ: ﴿يُنزِفُونَ﴾: وقَرَأَ الباقونَ بِفَتْحِ الزّايِ: ﴿يُنْزَفُونَ﴾[1]. وحجة من كسر أنه جعله من (أنزف ينزف): إذا سكر، والمعنى: (ولا هم عن الخمر يسكرون فتزول عقولهم)، أي: تبعد عقولهم، كما تفعل خمر الدنيا، وقيل: هو من (أنزف ينزف): إذا فرغ شرابه، فالمعنى: (ولا هم عن الخمر ينفد شرابهم كما ينفد شراب الدنيا)، فالمعنى الأول من نفاد العقل، والثاني من نفاد الشراب، والأحسن أن يحمل على نفاد الشراب؛ لأن نفاد العقل قد نفاه عن خمر الجنة في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم فتذهبها، فلو حمل ﴿يُنْزَفُونَ﴾ على نفاد العقل لكان المعنى مكررًا، وحمله على معنيين أولى. وحجة من فتح الزاي أنه جعله من (نزف): إذا سكر، وردَّه إلى ما لم يسمَّ فاعله، لغة مشهورة فيه، وإن كان لا يتعدَّى في الأصل، ولم يستعمل (نزف): إذا سكر، إنما استعمل بالضمِّ، على لفظ ما لم يسمَّ فاعله، وهي أفعال معروفة، أتت على لفظ ما لم يسمَّ فاعله، ولم تأت على لفظ ما سمي فاعله، فالمعنى: (ولا هم عن خمر الجنة يسكرون)، يقال: (نزف الرجل): إذا سكر، ويجوز أن يكون من (أنزف)، ردّه إلى ما لم يسمّ فاعله، ويضمر المصدر ويقيمه مقام الفاعل، فتكون القراءتان بمعنى واحد على هذا الوجه[2].

وجهُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَعِندَهُمْ﴾:

تعقيبُ النَّعيمِ بالنَّعيم عَطايا مِنَ الرَّبِّ الكريم

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على ما سبقَها، وهو عطفُ نعيم على نعيم؛ إذ بعدَ أنْ ذُكِرَ نعيمُ المَشرَبِ والأُنسِ بالصَّحبِ؛ ذُكِرَ عقيبَهُ نعيمُ الأُنْسِ بالزَّوْجِ[3]، وفي ذلك تتميمٌ لجوانبِ النَّعيمِ في جنّاتِ النَّعيم.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 357.
(2) مكّي، الكشف: 2/ 224.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 333.

عِلَّةُ تقديمِ الخبرِ ﴿وَعِندَهُمْ﴾:

التَّعجيلُ بإتمامِ نعيمِ أصحابِ الجِنان

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿وَعِندَهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ المُتعلِّقُ بالخبر على المبتدأ، وهو ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾؛ وعلَّةُ ذلك هي التَّعجيلُ بإتمامِ نعيمِهم، فهو نعيمٌ لأجلِهم، ودفْعٌ لتوهُّمِ خلوِّ نعيمِهم مِن هذا الأُنْسِ وتلك المُتعة، كما أفادَ التَّقديمُ تخصيصَ ذلك النَّعيم بالمُكرَمينَ.

سرُّ إيثارِ لفظِ (عند):

نعيمٌ حاضِرٌ قريبٌ

آثرتِ الآيةُ لفظ (عند) في قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ دونَ (لديهم أو لَهُم)؛ لدلالةِ (عند) على حُضورِ هذا النَّعيمِ عندَهم، فليس شيئًا يَحوزونَهُ لَدَيهم فقط، بل هو حاضرٌ عندَهم وماثلٌ أمامَهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ جَمْعًا:

في التَّعدُّدِ تنوُّعٌ للنَّعيمِ وتجدُّدٌ

جاءَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ جمعًا في قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ إشارةً إلى الكَثرةِ، ومعَ تعدُّدِهنَّ يزدادُ نعيمُ النَّظرِ إلى كلِّ واحدةٍ مِنهنَّ، والانشراحُ لقَصرِ كلِّ واحدةٍ منهُنَّ طرفَها غنجًا وحَياءً وحُبًّا، ففي الكثرةِ تعدُّدُ النَّعيمِ وتجدُّدُهُ وتنوُّعُهُ، ونلحظُ أنَّ النَّظمَ في ذكرِ خمْرِ الجنَّةِ احترسَ عن خُمورِ الدُّنيا بنَفْيِ الغَوْلِ والنَّزْفِ، وعندَما ذكرَ نساءَ أهلِ الجنَّة لم يَحترِسْ؛ لأنَّ أولئك النِّساءَ قاصراتُ الطَّرْفِ مثل النِّساء الصّالحاتِ في الدُّنيا في ذلك، فلا حاجةَ للاحتراسِ.

وجهُ تعريفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ بالإضافةِ:

قَصْرُ الحياءِ والغنجِ كَمالٌ وزينةٌ للمَرأة

عُرِّفَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ بالإضافة في قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ ليدلَّ على أنَّه قصرٌ متعلِّقٌ بالطَّرْف خاصَّة، وهو وصفُ كمالٍ وزينةٍ للمَرأة، وذلك بحبسِ النَّظَرِ إلى أيٍّ كان ومتى كان، وقصْرُهُ على صاحبِهِ قصْرَ حياءٍ وغنجٍ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

دلالةُ صيغةِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾:

وصفُ الكمالِ مدحٌ عظيمٌ ودليلُ حَياءٍ وعِفَّة

صيغَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بصيغةِ فاعلٍ، وهي صيغةٌ مُتأرجحةٌ بين الصِّفة المشبَّهة واسم الفاعل، فأمّا حمْلُهُ على الصِّفة المشبَّهة؛ فهنَّ (قاصراتُ أطرافهنَّ)، أي: إنَّ الطَّرْفَ قاصِرٌ عن الآخَرينَ، وما لا يصِحُّ، وهو وصفُ كمالٍ ودليلُ حياءٍ وعِفَّةٍ، وأمّا حمْلُهُ على اسم الفاعل؛ فهُنَّ قد قَصَرْنَ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، وهو مدحٌ عظيمٌ[1]، ودليلٌ على حُبِّهنَّ أزواجَهُنَّ.

دلالةُ لفظ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ مُعرَّفًا:

لُطفُ الطَّرفِ مقصورٌ على الحبيبِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ مُعرَّفًا؛ ليدلَّ على أنَّه الطَّرْفُ المَعروف، والمقصودُ به العينُ هنا، مِن: طَرَفَ بعينِهِ؛ إذا حَرَّكَ جفنَيهِ، أي: إنَّهُنَّ قاصِراتُ الأعيُنِ[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى مُلاحظةِ الطَّرفِ، وهو يَطرُفُ بلُطْفٍ، فيَزيدُهُنَّ جمالًا بمَنْعِهِنَّ طرفَهُنَّ إلّا على أزواجِهِنَّ، وفي الآيةِ كنايةٌ عن كمالِ العَفافِ والحَياء، فلا يَمُدُدْنَ أعيُنَهُنَّ لغيرِ أزواجِهِنَّ.

توجيهُ الوَصْفِ بـ(العين):

جمالُ العَينِ وحياءُ الطَّرفِ يَزيدُ القاصراتِ حُسْنًا

وُصِفَتِ (القاصرات الطَّرف) في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٌ﴾ بـ(العين)، وهي جَمْعُ عَيناء[3]، أي: حِسانُ العُيون؛ اتِّساعًا ودقَّةَ نظَرٍ، وهو وصفٌ لجمالِ العُيون[4] مُكمِّلٌ لوصفِ القاصراتِ؛ إذْ وُصِفْنَ بالعفَّةِ والحياءِ أوَّلًا، ثمَّ وُصِفْنَ بحُسْنِ العُيون[5]، وقد اجتمعَ الوصفانِ في محلٍّ واحدٍ هو العُيون، وقد أفادَ الوصفُ الاحتراسَ، وذلك بأنَّ حبْسَ أطرافِهن ليس ناجِمًا عن عيونٍ صغيرةٍ لا تُدرِكُ، وبصرٍ ضعيفٍ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 86.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 14.

لا يُحيط، بل هُنَّ عيناواتٌ يُبصِرْنَ ما حولَهُنَّ، لكنَّهنَّ يمنعْنَ البصرَ، ويَحبِسْنَهُ على أزواجِهنَّ حِمايةً لحقوقِهِنَّ وشدَّةِ أخلاقِهِنَّ.

سرُّ التَّشبيهِ بـ(كأنَّ):

المبالغةُ في التَّشبيهِ مِن تمامِ الإعجاب

شُبِّهتْ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ بالأداةِ (كأنَّ)، ويرجعُ سرُّ اختيارِها على غيرها من أدواتِ التَّشبيه إلى ما تحملُهُ من المُبالغةِ في التَّشبيهِ بالوصفِ معَ التَّحقيقِ والتَّوكيد، والقصدِ إلى جعْلِ قاصراتِ الطَّرفِ هنَّ البَيضُ المَكنونُ نفسُهُ[1].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيۡضٞ﴾:

يُزانُ الجمالُ بالنَّضارةِ والصَّفاء

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿بَيۡضٞ﴾ في قولِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾، والمقصودُ بهِ بَيضُ النَّعامِ خاصَّةً؛ إذِ "النَّعامُ يكنُّ بيضَهُ في حُفَرٍ في الرَّملِ، ويفرشُ لها من دقيقِ ريشِهِ، وتُسمّى تلك الحُفَر: الأداحي، واحدَتُها أُدْحِيَّةٌ، فيكونُ البَيضُ شديدَ لمعانِ اللَّونِ، وهو أبيضُ مَشوبٌ بياضُهُ بصُفْرَةٍ"[2]، وبها تُشبِّهُ العربُ النِّساءَ، وتُسمّيهِنَّ بَيضاتِ الخُدور[3]، وهو وصف بزَيْنِ النّضارة والصّفاء، وهو من أجمل الألوان التي تكتحل بها عيون الرجال عن مشاهدة بَشْرة النساء، ولتقع المناسبة بين لفظ ﴿بَيۡضٞ﴾ في وصف الحور، ولفظ ﴿بَيۡضَآءَ﴾ في وصف خمر الجنة، وهذا من بديع المناسبة اللفظية.

سرُّ وصفِ البَيضِ بـ ﴿مَّكۡنُونٞ﴾:

المَصونُ والمَحفوظُ أرغَبُ إلى النُّفوس

وُصِفَ البَيضُ بـ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾، ومردُّ ذلك إلى أنَّ النَّعام تبيضُ بيضَها في الفَلاة، فيكونُ مَصونًا، لا تمسُّهُ أيدي البشرِ غالبًا[4]، وتَعُدُّ لهُ الأداحي تفرشها بالرّيش[5]،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 473.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 43.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 248.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

فيكونُ محصَّنًا، لا دَنَسَ يلحَقُهُ ولا غُبارَ يَرهَقُهُ[1]، وكلُّ ذلك علامَةُ الصّونِ والحِفظِ، ففي التَّشبيهِ كنايةٌ عن العَفافِ والخُلوصِ لأزواجِهِنَّ معَ كمالِ السِّترِ، فلم يلمَسْهُنَّ أحدٌ قبلَ أزواجِهِنَّ، وبهذه الكنايةِ الثّانية تبيَّنَ أنَّهُنَّ لا يَمدُدْنَ أعيُنَهنَّ لغيرِ أزواجِهِنَّ ولا أحدٌ رآهُنَّ، أوْ لمَسَهُنَّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 232.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»